بنت الفلاح

للكاتب الأمريكي: ويليام سارويان william saroyan

طالما رددت جدتي ـ رحمها الله ـ القول المأثور لعمر بن الخطاب رضي الله عنه «أرى الرجل فيعجبني فإذا قيل لي لا عمل له سقط من عيني». واستناداً إلى ذلك كانت ـ طيب الله ثراها ـ ترى أن على الإنسان أن يتعلم صنعةً تقيه مذلة الفقر والعوز.

كانت تتأملني بكل حكمة السنين ودفق التجارب وتقول:

يجدر بك إتقان مهنة! أي صنعة كانت يا بني... تعلّم كيف تصنع شيئاً من الطين أو الفخار أو الخشب أو الحديد أو القماش، ذاك مطلب أساسي. هل بإمكانك صنع طاولة بسيطة أو كرسي أو طبق أو سجادة... أو حتى إناء قهوة؟ ونظرت إليّ بغضب ـ فكأنما ألهب ما قالت فؤادها وأثار حفيظتها فإذا هي تسألني: أليس بمقدورك عمل شيء؟ أي شيء!

ورمقتني بذات النظرة الحانقة قبل أن تردف:

ـ أعلم أنه يفترض أن تكون كاتباً ـ وإنك لكذلك فأنت تدخن من السجائر ما يدفعك إلى التوهم أن بإمكانك أن تكون شيئاً... أي شيء إن أجواء المنزل تعجّ بما تنفثه من سموم ينبغي... أن تتقن صنعة ملموسة لا محسوسة... شيئاً يمكن للرائي أن يمسه بيديه ذاك هو الأصل في كل شيء.

قالت جدتي ذلك ثم شرعت تقصّ عليّ حكاية قديمة وقعت أحداثها في بلاد فارس:

عاش في بلاد الفرس في غابر الزمان ملك عظيم ولم يكن له سوى ولد واحد شاءت إرادة الله أن يقع في غرام ابنة أحد الفلاحين. وعالج الشاب لوعات المحبين فترة فما استطاع إخفاء ما انطوت ضلوعه عليه من هوى جارف... وَوَجَدٍ

عن الرشد صارف واضطر أخيراً إلى مصارحة أبيه الملك:

ـ سيدي... لقد أحببت ابنة فلاح وكم أتمنى لو وافقت على زواجي منها!.

وفكر الحاكم مليًّا ثم قال:

تعلم مكانة أبيك كحاكم لهذه البلاد... وتدرك كذلك أنك وريثي الوحيد... وعندما أموت فستخلفني في الملك فهل يجوز أن تكون زوجة الملك القادم ابنة لفلاح بسيط؟!

وانشق صدر صريع الغرام... عن تنهيدة حرّى ثم قال:

ـ لست أدري يا أبي لكني على ثقة من شيء واحد... لقد ملكت علي تلك الفتاة حواسي، وشغفتني حباً... وإنني أعتزم أن أتخذها حليلة لتصبح بذلك ملكة لقلبي وموطني على حدٍّ سواء.

وأدرك الأب الحاني أن ابنه مصمم على ما قال... أدرك أنه لا سلطة لمحب على قلبه فوافق على مضض:

ـ سأبعث إذاً إلى والدها برسول! قال الملك.

واستدعى الرسول فأمره أن يتوجه إلى منزل الفلاّح فيبلغه برغبة ابنه في الاقتران بابنته، وما أن أتاهم ونقل إليهم ما حمِّل حتى سألته الفتاة:

ـ وما عمله؟ وتعجب الحاجب فرد في بدهية:

ـ إنه... إنه ابن الملك!

وأجابت: ـ إن كان يرغب أن أكون زوجة له فلا بد أن يتقن صنعة مّا. وعاد الرسول مشدوهاً فاغراً فاه، فأطلع الملك على ما قالته ابنة الفلاح. وعرض الملك الأمر برمته على ابنه... أفاده بردّ الفتاة وسأله عما إذا كان لا يزال راغباً في إتمام ذاك القِران المشروط، يومها أجاب الفتى بالموافقة وزاد على ذلك بأن قال بأنه ينوي تعلم مهنة نسج حُصُرِ القش بألوان وتصاميم شتى.

بعد أيام ثلاثة أتقن الشاب تلك الصنعة... وعاد الرسول إلى بيت الفلاح ثانيةً ليبلغهم بما تم عارضاً عليهم نماذج مما صنعه الأمير.

عندها أعلنت الفتاة موافقتها على الاقتران به، فتزوجها والسعادة تحلق به في أجواء ساحرة خلابة ما وطئتها مشاعر مخلوق قط...

وذات يوم ـ قالت جدتي ـ كان الأمير يسير في بعض شوارع المدينة وشعر بجوع شديد فلمح مطعماً أنيقاً نظيفاً بارداً دخله دفعاً لغائلة الجوع ورغبة في الابتراد... واتخذ مكانه فيه.. وكان ذلك المطعم ـ لسوء حظ الأمير ـ ملجأً للصوص والمجرمين الذين لم يتوانوا عن اختطافه وإيداعه قبواً مظلماً في باطن الأرض اعتادوا أن يضعوا فيه كبار رجالات البلد.

ذلك القبو ـ قالت جدتي مؤطرةً الحدث بدرامية مثيرة ـ كان مجمعاً لمشاهير المدينة وقد دأب قطاع الطرق أولئك ـ وكانوا عتاةً جبارين ـ على جعل البدناء منهم طعاماً لضعفاء البنية متخذين من ذلك دعابةً ولهواً يتندّرون به.

وكان ابن الملك ـ لحسن الحظ ـ نحيفاً مجهول الهوية لديهم... وذلك ما أبقاه ـ بعد مشيئة الله ـ حياً

وذات يوم... قال لأولئك العتاة أنه يجيد صناعة حصر القش وإنهم قد يستفيدون مما ينسجه ببيعه في سوق المدينة بأثمان مجزية، فما كان منهم إلا أن أحضروا له كثيراً من القش وأمروه بأن يبادر إلى نسج الحصر من فوره، وبعد أيام ثلاثة كان قد نسج ثلاثة حصر رائعة ونادى كبيرهم فقال له:

ـ أرى أن تبعثوا بها إلى قصر الحاكم وأنا على ثقة بأنه سيدفع لكم مبلغاً كبيراً لقاء كل حصير ـ مائة قطعة ذهبية على الأقل.

وحُملت تلك المنسوجات إلى القصر وما أن وقع نظر الملك عليها حتى أدرك أنها من صنع فلذة كبده، فما كان منه إلا أن حملها إلى ابنة الفلاح وأخبرها بأن ابنه المفقود هو من صاغها. وسارعت الزوجة الملتاعة بالنظر إلى تلك الحصر...

رمت إليها نظرات فاحصة مدققة فقرأت بين الثنايا الخفية للنقوش الملونة كل شيء! قرأت الرسائل التي جعلها زوجها في تجاويف الرسوم، فأخبرت الملك عاجلاً، فما كان منه ـ تابعت جدتي رحمها الله ـ إلا أن بعث بسرية من الجنود إلى القبو الموبوء فقتلوا جميع من كانوا فيه من قطاع الطرق والسفاحين وأنقذوا من كان به من المحتجزين. وهكذا عاد الأمير إلى أبيه الحاكم سليماً من الأذى وضمته وزوجته الشابة الذكية جنباتُ القصر ثانيةً، تلك التي ما أن رآها حتى ضمها إلى صدره وقبلها معيداً إليها ـ بعد الله ـ الفضل في نجاته وبقائه على قيد الحياة.

ولم يكن الملك أقل سعادة بنجاة ابنه وكان ممتناً لابنة الفلاح غاية.

ـ والآن ـ قالت جدتي ـ بعد أن روت لي ذلك ـ أرأيت أهمية تعلم مهنة شريفة لأي إنسان كائناً من كان؟

ـ بالطبع! قلت مبتسماً! ولسوف أشرع في صنع كرسي أو رف كتب حالما أدّخر مبلغاً يمكّنني من شراء عدة النجارة!

opelikandl.com